قربان التاريخ شهادة حية لشاعر عراقي عاش التحولات المأساوية في الحياة العراقية المعاصرة.. شهادة تأرجحت بين قيام الدكتاتورية وهيمنتها على مجمل مفاصل الحياة والفكر بقوة الحديد والنار وبين سقوط رمز هذه الدكتاتورية وصنمها.هذا الكتاب يوميات مراقبة للقمع والمصادرة والموت مثلما هو رصد لحركة الشعر والفكر.هو قراءة امتزج فيها السياسي بالشعري. عبر يوميات قامت بوصف ومن ثم فهم حوادث مأساوية اشبه بفصل كابوسي من رواية دموية حدثت في عالم آخر غير عالمنا.

المدى الثقافي

قربان التاريخ
العراق، من لهب العقل الى رماد النفط

الفصل الرابع

الوصول الى هولندا

صلاح حسن

نام الاطفال في تلك الليلة مبكرين وبقيت انا وزوجتي نتبادل الشجن والبكاء والعبرات. جلست هي تروي لي ما جرى لها منذ اليوم الاول لهروبي من العراق حتى اللحظات الاخيرة على الحدود السورية - الاردنية. كانت تتكلم وتبكي وانا كنت اصغي واتزعزع ، وكانت تأتي على بعض التفاصيل التي تجعلها تشهق وتختنق الى ان يختفي صوتها .. و كنت اهتز واتهدم في مكاني مستبقا التفاصيل التي كانت تأتي عادة ابشع واعنف مما اتصور . منذ ان فتشت المخابرات بيتي بعد يومين من هربي وهي تخضع لمطاردة المخابرات. كانوا يستدعونها كل اسبوع تقريبا لكي تجيب عن بعض الاسئلة التي لا يستطيع احد الاجابة عنها ! ذلك لانهم كانوا يعتقدون انني كنت اتزعم تنظيما سريا يهدف الى اغتيال (عدي) ابن الطاغية . انا شخصيا لا اعرف من اين جاؤا بهذه الحكاية . والتفسير الوحيد الذي جعلهم يفكرون هكذا –في اعتقادي –هو ما جرى لاحد الصحفيين واسمه (رحيم العراقي) الذي كان يعمل في صحيفة (بابل) التي يمتلكها عدي ، بعد ان نشر مقالا يشتمني فيه انا والشاعر باسم المرعبي والشاعر زاهر الجيزاني الذي هرب معي في الفترة نفسها ... والذي يقول فيه ما معناه انني خائن واصطففت الى جانب الخونة والاعداء ضد العراق وقيادته. بعد ان نشر هذا المقال قام بعض الاشخاص (لم اعرف من هم حتى هذه اللحظة) باختطاف هذا الصحفي وهددوه بالقتل اذا كرر ما قاله في مقالته الاولى . الا ان الصحفي عاد ونشر ما حصل من عملية الاختطاف وبالتفاصيل مما عزز الشك عند عدي ومخابراته في ان المجموعة التي خطفت الصحفي هي مجموعة من تنظيمي السري الذي ليس له وجود على الاطلاق. !! (لقد كنت في سوريا انذاك ، وفي محاولة لتشويه سمعتي عند الناس فقد قامت بعض الصحف العراقية بنشر خبر مفاده ان الشاعر الخائن صلاح حسن قد هرب الى اسرائيل) . كانوا يسألونها ان كنت استقبل بعض الاشخاص في بيتي او ان كانت لدي صلات ببعض الضباط ومن هم واين يسكنون؟ ولكن ذلك لم يحدث !! وكان من الطبيعي ان تكون اجابتها انها لا تعرف شيئا عن هذه الامور . لذلك كانوا يضغطون عليها بشدة لكي تعترف عن اشياء لم تحدث الا في اذهانهم المريضة. وبعد احدى جلسات التعذيب النفسي اقتادوها الى محكمة مدينة الرمادي واجبروها على طلب الطلاق مني . لقد حاولت ان تغير عنوانها عدة مرات .. ولكنها كانت مراقبة وكانوا يجدونها في كل مرة . ولم يكن احد يجرؤ على مساعدتها خشية ان يتهم بالتعاون مع اعداء الحزب والدولة .

لذلك اصيبت بكآبة حادة ستظل تعاني منها فترة طويلة . ولم يكتفوا بذلك .. فقد حولوا حياة اخوتي الاربعة الى جحيم من خلال سجنهم او استجوابهم المتكرر، كما لم ينج ايضا بعض اصدقائي المقربين من هذه الترويعات والتهديدات .

كان علينا ان نراجع دائرة المخابرات الاردنية في الصباح لكي نعرف التهمة التي ارتكبناها هذه المرة ! ولكي نسترجع جواز سفر زوجتي الذي صادروه على الحدود . لم اكن خائفا هذه المرة (كان لدي كتاب من الامم المتحدة يؤكد انني لاجئ وفي حماية الامم المتحدة) ، فقد كنت ضيفا عليهم بعد عودتي من سوريا واتهموني حينها بأنني تحدثت بسوء عن جلالة الملك الحسين ، نادوا زوجتي اولا .. وبعد قليل جاء شخص واصطحبني الى غرفة اخرى .. قال الضابط : لقد زرتنا قبل شهرين ووجدنا في حقيبتك بعض الاوراق وفيها ارقام هواتف تعود الى اشخاص عراقيين نشك في انهم يعملون مع المخابرات السورية، ما علاقتك بهؤلاء الاشخاص ؟! اخرجت اجندتي من الحقيبة وقلت له : لدي هنا كل الارقام والعناوين .. هل تستطيع ان تؤشر على رقم معين ؟ قال بعجرفة وغضب .. هل تظن انك ذكي ؟ فقلت : انا لا احاول ان اكون ذكيا ، ولكنني اريد ان ابرئ نفسي . قال : كيف دخلت زوجتك الى سوريا .. ومن أي مكان في العراق؟ قلت : عن طريق كردستان .. هل الاختام مزورة ؟ قال : الاختام صحيحة جدا ما يدل على انك على علاقة متينة بالسوريين ! قلت : المعارضة العراقية كلها في سوريا وقد استعنت بأصدقاء مؤثرين . عندها سألني سؤالا غريبا ... ايهما افضل .. صدام ام الملك حسين ؟ فقلت له ياسيدي لاتوجد مقارنة بين الاثنين . وكنت اقصد ذلك صراحة . عندها قال : انت غير مرحب بك هنا .. لديك اسبوعان كي تغادر الاردن . فقلت : هذا تلفون الامم المتحدة .. اتصل بهم واخبرهم بذلك . قال : هل انت لاجيء سياسي ؟ قدمت له كتاب الامم المتحدة ، وبعد ان قرأ ما فيه قال : اذهب وانتظر في الخارج . بعد عشر دقائق خرجت زوجتي بعينين حمراوين ، ولكنها كانت تحمل الجواز بيديها . هل انتهت المشكلة ياترى ؟

ينبغي ان اعترف ان المخابرات الاردنية لم تستخدم العنف معي اثناء التحقيق ، على العكس من شرطة النجدة الذين اقتادوني ذات يوم وانا اسير في الشارع العام الى المخفر بتهمة (تناول الخمر) !!! واودعوني في سجن (جويدة) الرهيب لمدة اسبوع وارادوا تسفيري الى العراق . ولولا تدخل الامم المتحدة وجهود المحامي سامر حدادين لكنت في عداد الموتى الان .

سنسافر الى هولندا بعد اسبوع .. علي اذن ان اودع الاصدقاء الحميمين والاشخاص الرائعين الذين وقفوا الى جانبي وساعدوني طيلة هذه الفترة . ذهبت الى الصديق عادل الشامي كي اعتذر عن عدم قدرتي على تسديد مبلغ (٣٠٠) دولار الذي استدنته منه وارسلته الى زوجتي عندما كانت في سوريا وطلبت منه رقم حساب او ما شابه .. ولكنه بطيبته المعهودة رفض وقال ان المبلغ هدية للاطفال . ذهبت الى الصديق اسحاق سليم لاشكره على تضييفي ... انني في الواقع عاجز عن ذكر كل هؤلاء الاشخاص الطيبين ، فهم اكثر من ان اعدهم . اما البياتي فقد احببت ان يكون ضيف الليلة الاخيرة وكانت هذه رغبة الزوجة والاطفال .

في الثامنة مساء من ليلة ١٩٩٥/٣/٣١ وصل البياتي الى الشقة فاستقبله الاطفال (جدو .. جدو ..) فأحتضنهم وقبلهم واحدا واحدا كأنهم احفاده . جلسنا نشرب بينما كانت زوجتي تعد الطعام .. وكان دائما اواجه المواقف التي يستعصي علي احتمالها او تفسيرها بالكحول او بالحبوب المنومة . ولان الطيران شيء لذيذ وغامض ، كما كان يحدث في احلامي الاولى فأن الويسكي سيضفي نكهة على الرحلة الاولى التي ذكرتني بأول مرة امارس فيها الجنس . قبل ان نتوجه الى الطائرة تناولت جرعة من الويسكي من قنينة صغيرة احدثت خدرا لذيذا في مفاصلي وبدأت استرسل بأحلام اليقظة . تخيلت انني ذاهب بعد قليل في رحلة طويلة فوق البحار والغابات الكثيفة المعتمة . استعدت رواية روبنسون كروزو وتلك الجزيرة المفقودة . لم يستمر حلم اليقظة هذا سوى ثوان ، اذ هزت ابنتي يدي وهي تقول : بابا .. عليك ان تحمل الحقائب . في الطائرة اخترت مكانين متجاورين .. الاول يتألف من مقعدين لي ولزوجتي ، والمقاعد الاخرى للاطفال ولكنني فوجئت بالمضيفة وهي تطلب مني ان انتقل الى مقعد اخر ! قلت لها ان هذا المكان مناسب لي وللعائلة فلماذا علي الانتقال الى مكان مختلف .. ثم ان الاطفال سيكونون في مكان يتعذر علي ان اهتم بهم ؟ حاولت ان تشرح لي ان لكل راكب رقما وكرسيا محجوزا مسبقا . انتبهت الى ان الاخرين كانوا يثيرون الفوضى نفسها وسط دهشة الركاب الاخرين الذين احتلت مقاعدهم .. ولم تتحرك الطائرة الا بشق الانفس . وعندما حلقت شعرت ان قلبي يسقط في حذائي من جراء الشعور بأنعدام الوزن . وحينما اصبحت فوق الغيم شعرت ان اذني قد اغلقتا بالشمع ولم يفارقني هذا الاحساس الاعندما تمخطت فأنفتحت اذناي وشعرت بالراحة .

الاطفال يتقافزون حول البياتي الذي كان سعيدا بهم الى درجة ان معلى الصغير نام في حضنه . في الحادية عشرة والنصف قال البياتي انه ينبغي ان يغادر الان فطلبت ان اوصله الى البيت كالعادة .. الا انه قال لاداعي لذلك ، وكانت هذه هي المرة الوحيدة التي يذهب فيها البياتي وحيدا .. ولم اره بعد ذلك ابدا .

لاول مرة استقل الطائرة ، كنت موزعا بين الارتباك والدهشة . كنت

استغرقت الرحلة خمس ساعات كنت افكر خلالها بالعالم الجديد والحياة الجديدة التي تنتظرنا في هولندا . في المطار وجدنا مجموعة من الاشخاص ومعهم مترجم ، حيث اعدوا باصين لنقلنا الى المعسكر المؤقت في مدينة أبلدورن. كان المترجم عراقيا ، ويبدو انه كان يعرف اننا سنعيش صدمة ثقافية لدى وصولنا ، فقد حاول ان ينتقي كلماته بعناية من اجل توصيل افكاره بشكل دقيق حول الامور التي ينبغي علينا ان نقوم بها . كان المعسكر عبارة عن بيت كبير جدا ويتألف من ثلاثة طوابق مع مطبخ كبير ومكاتب للموظفين وصالة للتلفزيون . وكانت هناك ساحة لكرة السلة وملعب صغير للاطفال . كنا خمسة واربعين شخصا ، وزعونا على غرف صغيرة جدا ومتجاورة كانوا اعدوها مسبقا نسبة الى عدد الاشخاص في العائلة الواحدة ، وكان على الاطفال ان يناموا في غرف خاصة بهم . في اليوم التالي كان علينا ان نذهب الى المدرسة لتعلم اللغة الهولندية وكانت هذه اول صدمة نتعرض لها . ذلك لان اللغة الهولندية غريبة جدا بالنسبة لنا ، والشيء الاخر هو ان عدد الذين يجيدون الانكليزية في المجموعة لا يتجاوز اصابع اليد الواحدة . وكم كان طريفا بالنسبة للجميع ان يعرفوا وفي الحصة الاولى ان كلمة التحية في الهولندية هي (داخ) او (دوخ) التي تعني بالعربية (دائخ او ضارب دالغة) والتي اصبحت في الايام التالية محل تندر الجميع .

مواقف محرجة مضحكة

بدأت المواقف المضحكة تترى بسبب عدم فهم اللغة ، وكنا نسمع كل يوم عن موقف محرج حدث لاحدهم في الشارع اوفي السوق او في دائرة البريد او في المعسكر نفسه . فعندما يحييك شخص بكلمة : كيف حالك .. ينبغي ان تقول : انا بخير . . وانت ؟ دلالة على المجاملة . وذات يوم تصادم احد الهولنديين مع احد العراقيين بالدراجات الهوائية وسقط العراقي واصيب بجروح ، فهرع الهولندي وسأل العراقي .. كيف حالك ؟ فرد عليه العراقي : انا بخير وانت ؟؟ . في الاسابيع الاولى كنا نحصل على مرتب اسبوعي نتسلمه نقدا ، وبعد ذلك فتحوا لنا حسابات في البنوك وزودونا ببطاقة يمكن استخدامها في ماكينات منتشرة في اماكن كثيرة مع رقم سري (كود) . رجل كبير السن لم يصدق ذلك .. اصطحب ابنه الشاب معه وذهب ليجرب الماكنة . وعندما سحب الابن مبلغا من المال قال الاب : هذه هي دولة المهدي (المنتظر) الحائط يعطي فلوسا .. ثم قال لابنه : اطلب من الماكنة ان تعطينا اكثر . وعندما سأله الابن كم ؟ قال : كثير .. كثير جدا .!

كانت معنا امرأة لا تأتي في مواعيدها ابدا ، احيانا تأتي قبل الموعد بساعة واحيانا اخرى تأتي بعد ساعة من الموعد. وكانت في كل مرة تنفعل وتتهم الاخرين بأنهم يضحكون عليها . ذات مرة ذهبت الى الطبيب حسب الموعد فقال لها الطبيب : لقد جئت متأخرة ، عليك ان تعملي موعدا جديدا . لكنها غضبت وعادت فورا الى المعسكر وطلبت ان تتحدث الى المترجم . قالت : سوف اصاب بالجنون ، حتى الطبيب يقول انني غير مضبوطة في المواعيد .. فقال المترجم : في أي ساعة كان موعدك ؟ قالت : في العاشرة والنصف . تناول المترجم التلفون واتصل بالطبيب وسأله عن القصة فقال الطبيب ان الموعد كان في التاسعة والنصف . عندما اخبرها المترجم ان الطبيب يقول ان الموعد في التاسعة والنصف وليس في العاشرة والنصف اوشكت على البكاء وهي تقول : لقد اتصلت بالطبيب بنفسي وقال لي (هلف تين) قالتها بالهولندية . عندها ضحك المترجم وقال لها اجلسي ، هناك سوء فهم .. وبدأ يشرح لها كيف يتعامل الهولنديون مع الوقت والساعة وكيف انهم يقدمون الوقت ساعة الى الامام اذا كانت الساعة كذا (والنصف) . فعندما يقول الهولندي اراك في الثامنة والنصف يعني ان الموعد سيكون في السابعة والنصف . لم تفهم المرأة أي شيء مما قاله المترجم ، ولكنها قررت ان مواعيدها القادمة ستكون كلها بدون (ونصف او وربع) وبلا وجع رأس .

هنالك الكثير من الكلمات الهولندية التي يتغير معناها بتغير لفظها ،. كان معنا شاب احمق يحاول دائما ان يتحدث مع الفتيات الجميلات . مرة شاهد فتاة واقفة تدخن فاخرج سيجارة من جيبه وتقدم اليها يطلب منها (قداحة) فقال لها : هل تسمحين لي بمكواتك الكهربائية ؟ .

لقد قضينا ثلاثة اشهر في مدينة أبلدورن مليئة بالصدمات والاحراجات ، ومع ذلك فقد كنا سعداء بالخبرات الجديدة وبالعلاقات الطيبة مع الهولنديين الذين اثبتوا لطفا منقطع النظير ، خصوصا العاملين بالمعسكر امثال هاري المدير ومارغريت الحنونة كأم والمترجم احمد النقشبندي الذي كان يستمتع بحماقاتنا كثيرا .

حوار مع الباحث حسن علي خلف بشأن كتابه الجديد

عن الهور والسحر والجمال

ينطلق في مشحوفه وشباكه فوق مسطحات الماء يستظل باسراب الطيور ويتوغل في غابات القصب:
هذا هو الجنوبي ابن الاهوار الذي وثق حياته وبيئته الأستاذ حسن علي خلف في كتابه المعنون (الاهوار) حيث تناول في فصوله الستة بدايات التكوين والاستيطان ومعتقدات الناس وطبيعة السكن في الاهوار ، كما خص بدراسته انواع الطيور المهاجرة والمستقرة والاسماك وعوالم هذا الكون الساحرة.
المدى وبعيد صدور كتاب الاهوار التقت الباحث حسن علي خلف ووضعت امامه عدداً من الاسئلة المتعلقة بموضوع البحث وبيئة الاهوار ليرد عليها.

دعوة للباحثين

❖لماذا الاهوار ؟
- بالنظر لما تعانيه المكتبة العراقية من عدم وجود دراسة عميقة تتعلق بالاهوار ذلك العالم الخاص الذي يكتنف السحر والجمال والبهجة وعوالم خفية تكاد تكون لها خصوصية لا يعرفها الكثير لذا قمت باجراء هذه الدراسة متوخيا هدفين: الاول اغناء المكتبة كما اسلفت، والاخر لعطف نظر الباحثين والدارسين والجهات ذات العلاقة على استكناه واكتشاف هذا المسطح المائي الذي يشكل خمس مساحة العراق لاجراء الدراسات والبحوث سيما ان لدينا جامعات البصرة وذي قار وميسان ومن ثم عطف انظار العالم والمستثمرين لانجاز مشاريع سياحية .

تنوع ثقافي

❖ ما تأثير بيئة الاهوار على الثقافة العراقية ؟
- من المعلوم ان المنطقة الجنوبية تتمز عن باقي مناطق العراق ببيئات اربع وهي البيئة الصحراوية التي تكاد تحيط بالمنطقة الجنوبية من جميع الجهات والمتمثلة بالمنطقة الغربية والمنطقة الفاصلة بين ذي قار والكوت وصحراء الطيب والشيب وابو حديرية وابو زركان، والبيئة الاخرى هي البيئة التي تتراوح بين الريف والمدينة والتي تسمى اصطلاحا (الشاوية) والبيئة الثالثة هي بيئة المدن وهذه البيئات الثلاث تتشابه في جميع انحاء العراق الا ان الذي يميز المنطقة الجنوبية في العراق هو بيئة الاهوار ذلك العالم الخاص ذو الطقوس المعيشية الخاصة والحياة التي لها نمط يكاد يختلف عن نمط حياة البيئات الاخرى وهذا يعني ان هناك تنوعاً في الثقافات وهذا التنوع بحد ذاته يوجد انماطاً ثقافية متنوعة ويوجد (بكسر الجيم) خصوبة بالتفكير وعطاء في الانتاج وغزارة فيه تبعا لذلك التنوع، وبالتاكيد فان تاثير هذه العوامل مجتمعة له اثر واضح في الثقافة العراقية وفي فكر المفكر العراقي سواء كان على مستوى الثقافة ام العلم.

تحطيم الانسان

❖ ما حجم الاضرار التي أصابت التركيبة الاجتماعية عقب تجفيف الاهوار من حيث تفكيك البنية الاجتماعية لسكان الاهوار ؟
- بمقدوري القول ان عملية تجفيف الاهوار وتخريب البيئة وتحطيم بنيتها التركيبية والتكافلية تعد من ابرز الجرائم التي ارتكبت في القرن الماضي بحق المنطقة الجنوبية وما ترتب عن ذلك التجفيف او تلك المؤامرة من سوء كان الهدف منه على ما يبدو الاساءة الى الانسان وتحطيمه وتهجيره بل وتشريده وهذا ما حصل وبأبشع صوره اما فيما يتعلق بالنبات والحيوان سواء الطير منه ام السمك ام الداجن فان عملية التجفيف بحد ذاتها تعد هدرا لتلك الثروات الهائلة التي كانت تمد كل العراق بكميات كبيرة من الاغذية والرز الجنوبي (العنبر) بروائحه العبقة وطعمه اللذيذ حتى انه دخل في النتاج الشعري الشعبي للمواطن في الجنوب من خلال اسمائه المشهورة (نعيمة ، المولاني ، الربش) وغيرها من انواع، اما اصناف الطير واصناف السمك و مواسم الصيد التي حرم منها مواطن الجنوب والمواطن العراقي فتلك لها حكاية يتصدع لها الكبد.

مشتى السومريين

❖في مقدمة كتابكم وجهتم دعوة للجامعات الجنوبية لدراسة بيئة الاهوار، ما صدى هذه الدعوة وهل تتوقعون استجابة سريعة ثم ما هي تصوراتكم عن انعاش الحياة في الاهوار ؟
- لا شك في ان الجهات المختصة وخاصة الجامعات افردت في تنظيماتها التكوينية اقساماً خاصة لدراسة الاهوار وهذا حصل في جامعة ذي قار حيث هناك مركز لتطوير وانعاش الاهوار وربما مركزان في البصرة وميسان ليس لدي علم بهما الا ان مركز التاريخ الطبيعي مركز قديم اتحف الباحثين بدراساته وبحوثه الغنية المعمقة ولقد وجهنا الدعوة من خلال بحثنا عن الاهوار الى تلك المراكز لتضطلع بمسؤولياتها مستفيدة من اخر ما انتجه العقل البشري من تكنلوجيا لاستثماره في بيئة الاهوار وعسى ان تكون الاستجابة كريمة والدراسات مبرمجة وليست متروكة للصدفة والمزاج وانما نتوخى ان تكون مستمرة لتؤتي اكلها حيث ان هذه الاهوار وهذا المسطح المائي الذي يعد اكبر مسطح مائي في العالم كان موئل القادة والامراء عبر كل العصور لاتخاذه مشتى بطيب هواؤه ودفئه ووفرة خيراته وممارسة رياضة الصيد التي هي ميسورة باوسع سبلها ومتنوعة بشكل هائل وليس بعيدا ان قلت لك انها كانت مشتى للسومرين والاكديين والملوك البابليين وكما معروف هي مشتى لخلفاء بني العباس وامرائهم وقادتهم وقادة الثغور والاطراف حيث كانوا يمضون اطيب الاوقات. وفي العصر الحديث، وخاصة في القرن الماضي، كان هذا المسطح المائي (البطائح) موضع اهتمام جهات اجنبية عديدة وخاصة الانكليز والفرنسيين والالمان والهولنديين والايطاليين حيث اجريت العديد من الدراسات والبحوث لتقييم الجدوى الاقتصادية لهذه المنطقة الغنية وخاصة في جوانبها السياحية.

عزلة الجريح

محمد الحمراني

أيها الربيع....
أطرق رأسي مرة
لتبتسم الأحلام
وحدي نائم بلا عيني
منذ سنوات هجرني أخوتي
واليوم...
بأصابع ذليلة أرمم العزلة
في الليل...
يخنقني صوت الحشرات
وفي النهار...
لا أقدر ان أصافح الشمس
أخوتي الذين ذهبوا الى الحرب
رائحتهم ملتصقة بالجدران
.... ثيابهم ترفرف
وأصواتهم تنتفخ
وهي تنحني على حنجرتي
أخوتي الذين ذهبوا الى الموت
من اجل ان تنقذهم الأرض
وتبقى الشجرة تغرد...
بينما العناديل تقف ...
حزينة على الجدران
تتأمل أحلامي التي أكلتها الحروب
تتأمل العواصف ..
تركت جراحها على أفخاذي
الى أي ضوء سأتكلم
لأمسك أجنحة الغيمة
وأبعدها عن المنزل ؟
الأذرع ...
لا تقوى على تسلق الكارثة
انها ذليلة مثل موجة لم تنقذ الغريق
انها حزينةٍ كأغصان لم تورق
ولكن غالباً ما الوح بها للمارة
فيبعثون لي وردة
بينما قميصي المثقوب
لا ينتظر غير الربيع